جدل الأدب والتاريخ في محكيات الرحلة

The controversy of literature and history in the travel narratives

عيسى بخيتي^{1*}جامعة عين تموشنت - بلحاج بوشعيب¹ (الجزائر)، البريد الإلكتروني bekhaiti72@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2022-07-31 تاريخ القبول: 2022-10-26 تاريخ النشر: 2022-12-27

مُلَخِّصُ الْبَحْثِ

يحكم الرحلة قطبان؛ قطب معرفي وقطب فني، يتراوح المعرفي بين المادي والفكري، وهو عبارة عن مكتسبات وتناقض تحصل للرحلة أو يكتسبها من خلال سفره لتحقيق روح الحياة القائمة على التطور والنفعة.. والقطب الثاني، وهو القطب الفني، الذي وإن بدا شيئا هامشيا إلا أنه يمثل ذروة نشاط الإنسان وطقس من طقوسه الثقافية المتشكلة روحا يسري في عروق جلالته وجدانه، وهي روح القصص والأخبار والمحكيات.. فلا شك أن الرحلة هي هذان القطبان معا، هي مزاجية مزاج الإنسان، تركز للذاتية فتطفح تارة وتخوض في الموضوعية أخرى فتتححف، فمعيار الأدبي والتاريخي في الرحلة يتباين بين الذاتي والموضوعي، وهذه هي بؤرة الجدل القائم بين الأدبي والتاريخي في النصوص الرحلية المختلفة.

كلمات مفتاحية: جدل - أدب - تاريخ - محكي - رحلة - أدبية - مدونة - فني.

Abstract:

Two Poles govern travel; A cognitive and an artistic pole. The cognitive ranges between the material and the intellectual, which is the traveler's sum of acquired and cultural during his journey to achieve a spirit of life based on evolution and benefits. The Second pole, which is the artistic pole, which, although it appears marginal, it represents the peak of human activity and a ritual of its cultural rituals forged as a spirit that applies in the veins of his consciousness, which is the spirit of stories, news and tales.

There is no doubt that travel is these two poles together; it is the human mood that at some times surfaces subjectivity and other times objectivity, so it comes short.

* المؤلف المرسل: عيسى بخيتي.

So, the travel literary and historical criterion varies between self and objectivity, and this is the focus of the controversy between literary and historical in various travel texts.

Keywords: Controversy - literature - history – Oral - travel - literary - corpus - art.

1. مقدمة:

الرحلة فعل؛ الرحلة أيضا قبل الفعل وبعده.. الرحلة مشروع انتقال الإنسان (جسدا وفكرا) من نقطة بدء إلى نقطة وصول. الرحلة إذن؛ عملية انتقال فعلي لشخص مفرد من نقطة صفر إلى نقطة أخرى قد تبعد وقد تقصر/ من مكان مألوف إلى مكان مختلف في مسار متناوب.. هذا المفهوم يظل صحيحا، بل معتمدا إلى حد كبير في وعي عامة الناس.. بل هذا هو منطوق الفعل الرحلي، أي الانتقال من مكان أول إلى مكان آخر، ويكون مشروطا بقصد أو هدف معين، فلولا دافع القصد لما تحرك هذا الفرد من مكانه. والقصد لا يكون ماديا بالضرورة، فقد يكون معنويا أيضا، تتحقق فيه مطالب ذاتية ورغائب نفسية تملئها النوازع الإنسانية، قد تكون للتسلية والترفيه أو التدبير والتأمل، تتيح للنفس راحتها وتنزع عن كاهلها ترسبات مألوف الحدث الزمني.

نستطيع القول؛ إن الرحلة الفعلية من مكان إلى مكان آخر تكون مزدوجة المقصد؛ مقصدية مادية نفعية وأخرى معنوية، ما يمكن أن يكون مختلفا بينهما، أن الأولى تحقق منافع مادية أو معرفية وتتحقق في الفرد الواحد كما قد تتحقق في الجماعة، أما الثانية فهي رحلة فردية تخص كل ذات على حدة.

تتضمن الرحلة الفردية وجهة نظر خاصة ومنفردة، لأنها تنتج انطلاقا من محاورة داخلية بين المرء وذاته، تجاه المرئيات المستوعبة العابرة بالقناة السرية المنفردة من الواقع نحو الذات، في قياساتها لتشكيلة الألوان والأحجام والصور والآثار والمشاهد والأحداث.. بمعايير ذاتية حين مطابقتها مع مرجع الفرد المرتحل ذاته، وهي حالة التوازي التي لا يمكن أن تتطابق ولا أن تتساوى بين أفراد المجتمع الواحد إلا في نقاط نسبية لا غير.. ليس من زاوية النظر فحسب بل حتى من زوايا المرجع والائتلاف والاختلاف وحب الشيء وبغضه، وقبوله والنفور منه.. الخ.. أما فيما يتعلق بنمط الرحلة

المادية، فهي ذات بعد جماعي قد يكون التقاطع فيها عاملا مشتركا بين أفراد المجتمع في العديد من النقاط، لأن طبيعتها المقصدية تتلاءم مع طبيعة الفرد من خلال مجتمعه..

1 . الإنسان والرحلة:

قدّر الإنسان أن ترتبط حياته بالرحلة، فقد عرف الرحلة منذ البدء كمرحلة انتقاله من عالم الأجنة إلى عالم الحياة، ثم تلقاه محطة أخرى للسفر الأخير من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الحياة الآخرة.. كما أن مصيره في تحقيق أهدافه في الحياة مرتبط بل مشروط بالرحلة، وهذا ما يجعل سلوك الإنسان يتنافى مع السكون تماما، وبين هذا وذاك تغدو حياته كلها رحلات أو تكاد.

وفي ظل هذه الرحلات الحتمية التي يراودها الإنسان وتراوده ولا تكاد تفارقه، تنشأ لديه ثقافة الرحلة كظاهرة مصاحبة لفعالها المادي، اقتضتها طبيعته النابذة للجمود، سعيا إلى تذويب جبل ثلج الملل الذي قد تشمخ قِمْمه بتراكم تكرار الفعل المجرد. بالإضافة إلى فضول الإنسان في الاستكشاف والتفاعل مع الطبيعة ومحاوره أشياءها طموحا في تحقيق الأفضل لحياته.. وتتجلى في هذا المسعى طبيعة أخرى، وهي طبيعة التفاعل الإنساني الذي يحاول فيها الفرد مطابقة اعتقاده في الأشياء مع رؤى وآراء الآخرين من أجل مصادقته على قناعاته فيما يرى وفيما يتشاقف معه ضمنيا.. فتنشأ عن هذه المحاورات والمشاورات عمليات استقصائية، تشكل في الأخير محكميات تمرر على صيغ مختلفة، تتقدمها الحكاية الأم التي تأتي في المقام الأول متوهجة بتفاصيلها الكلية، وتكون في المحطة الأولى بعد العودة من السفر مباشرة، ثم تليها محكميات متقطعة وفق مطالب الحياة اليومية، وطبيعة الراوي، وتفاوت فيها درجات السرد من خلال مقاطع تفرضها مقامات الحكوي.

2 . الرحلة مادة إخبار:

من السذاجة الاعتقاد بأن الرحلة متوقفة على قصديتها في تحقيق غايتها النفعية، ذلك أن الإنسان ينتقل بكل مكوناته -إضافة إلى الجسدية- العقلية والعاطفية.. فتمسح له هذه المكونات بامتلاك طاقات معرفية جديدة وأنماط من الحياة متجددة، وكل مكتسب جديد من هذه المكتسبات يتشكل تدققا ضافيا على سطح الاحتمال، مما يجعل الفرد (المسافر) في حالة فضول غامر يدفعه إلى تشكيل تلقائي لقائمة ممن يشملهم برنامج إعادة تفاصيل الطريق من أهله وعشيرته، فتقاسمه

هذا الرصيد.. فيكون مسافرا ليس بمفرده، وإنما حاملا معه هذه القائمة المرشحة ممن سيضملمهم سرد أهم محطات التوتر الحاصلة في سفرته، وتكون من خلالها نية العودة والتلهف إلى ذلك. إن طبيعة البشر مركبة على هذا النحو، كون الإنسان كائنا اجتماعيا، يهفو إلى مشاركة الآخرين، للفضول وللتحقق والتصويب والإبلاغ.. الخ. وقد أكد أحد الشغوفين بالرحلة على أن "الذي يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى، هو فيلسوف، والذي يروح ويجيء ولا يقول.. إنه صعلك فقد استمتع واكتفى"¹. ولا يمكن أن يندرج هذا الحديث الذي يعود به المسافر إلا ضمن صنف "الأخبار". فالرحالة لا يبلغ عن رحلته سوى أخبارها، وأخبار ما تعرض له خلالها. فكل تجاذب بين الرحالة والمتلقي حول هذا الحدث، سوف لن يكون إلا تحت عنوان واحد هو "الخبر". بغض النظر عن فحوى موضوعات الحصيلة الجديدة التي تحوّل إلى مادة دسمة للأخبار..

2 . 1. الخبر مادة الرحلة:

يقوم المسافر أثناء فعل السفر بجمع تراكمي لأحداث الرحلة، القصصية والتلقائية، ذلك أن المسافر "إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف.. يريد أن يفهم.. يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر.. والجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم.."² ومن خلال ذلك يتشكّل الخبر مادة موضوعية، يتحقق من ورائها اكتساب جملة من المعارف المتنوعة تضيف للرصيد الإنساني طائفة المستجدات فيتعرّز قاموسها بدائرة معارف جديدة ومتجدّدة، يتراكم كل هذا وغيره في جعبة ذاكرته المفعمة، حتى إذا عاد إلى موطنه تأسست لديه مادة خبرية، تروى على دفعات وحسب المقامات والمناسبات..

إن طائفة الأخبار هي مادة الرحلة الأولى التي تحجب قصديتها وتعفّ عن غنائمها، ليبقى "الخبر" ناطق الرحلة وصورتها الإعلامية ومادتها الثقافية. فحزمة الأحداث التي تتشكّل دفعات إخبارية تصنع وحدها غاية السفر، عند الفضوليين سواء تحقق فيها جلب النفع القصدي أو لم يتحقق.

2 . 2. الخبر حكاية

لعله من نافلة القول أن نسلّم بأن الخبر ذو طابع حكائي، ذلك أن هذا العنصر كان يُعدّ - قديماً - مادة الأنس والمسامرات، ومجالاً للطرفة والتشويق، فقد كان بالإضافة إلى مضمونه المعرفي، يُشكّل مادة إعلامية وطفوحاً سردياً تتغذى على موائده المجالس ويسلي به القوم ويغاث به اللهفان، دفعا للملل وسعياً وراء تحقيق التوازن الوجداني.

ولقد شغلت الرحلة حيزاً زمنياً طويلاً جداً، كرافد للخبر ووسيلة هامة من وسائل نقله، بل كانت الرحلة القناة الوحيدة المخولة لهذه العملية، فقد كانت المورد والموئل الحقيقي لذلك. لا يجلب المستحدّ إلا من خلالها، ولا تتحقق الحكاية إلى من أطرافها، فتشكّلت مع الزمن رافداً حقيقياً لفن القصص المشوق والمسلّي، في بيئة عربية أكثر ما كان فيها مستحسننا هو "فن القول"، فلا شك أن العرب كانوا "يشغفون بالقصص شغفًا شديداً، وساعدهم على هذا أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يُرحي الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله: "كان وكان"، حتى يُرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث، وشباب الحي وشيوخه ونساؤه وقتياته المخدّرات وراء الأُخبيّة، كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة"³ فلقد كانت الرحلات تزوّدهم بهذه المواد الغضة فيستقبلونها بحفاوة وينتظرون قدومها مع القافلة كما ينتظر الطفل أمه..

لقد كان العرب قديماً يُؤلّون الأخبار اهتماماً بالغاً، فقد كان يشكّل مادتهم الأدبية وقراءتهم التاريخية وتطلّعهم إلى المستقبل.. ولم تكن الأخبار تتبرعم من حينها على ثربة المكث، لو لم تدفع بها الحوادث أو تجلب من الأقاليم.. وتتحول بالتراكم من خبر بسيط إلى قصص فريد تفرضه طبيعة تطور الأجناس، فإذا "كان الخبر أصغر وحدة حكاية فإن الحكاية تراكم لمجموعة من الأخبار المتصلة"⁴ فتُنسج على المنوال الفني بخصائص سردية تنضبط قصصاً تروى وتعاد رواياتها، من قبل الرواة المتخصصين، الذين لم يكونوا قديماً "يفهمون من معنى الإخبار إلا أنه القاص"⁵ هذا الأخير كان يتحيّن الأخبار فيفصلها مقاسات تماشياً مع مطالب المتلقين ورغبة المستمعين، أو كان هو الساعي إلى جلبها من خلال رحلاته، خاصة وأن تاريخ الأدب العربي كشف على أن معظم الرواة كانوا جوالين.

إن فعل المحكي في السفر يتجلى واضحا عند عودة الرحّالة من سفره، حيث تصبح فيه هذه النهاية هي بداية عالم جديد، وهو عالم إعادة سرد الطريق من خلال أهم محطاته، ليس على مستوى الرحّالة الذي يكون مدفوعا برغبة شديدة إلى المحكي، بل حتى الأهل والعشيرة والأصحاب، كلهم كان ينتظر هذه اللحظة، وعلى أهبة الاستعداد هم كذلك للاستخبار من هذا المسافر العائد، والتفتّن في مساءلته حول ما تعلق بسفره؛ ما تعرّض له وما تحقّق له، وما حمل معه من نوادره.. وهلم جرا.

وقد عرف هذا المجال تطوّرا من القصص البسيط إلى الثقاف المعقّد، فلم يبق السفر قائما على نقل الأخبار كما جرت الأحداث، بل عاش الرحّالون تجارب الأمم وانغمسوا في فنونهم المختلفة وأخلاقهم وسلوكهم وراودتهم إنجازاتهم، وحفّزتهم همهمهم.. كل هذا وأكثر قد خلق ذاتا ذوّاقة تعشق التيه في سبيل جلب قطوف الأخبار من كل طرف، لتشكلّ قطعاً صافية من القصص والخرافة والأساطير، تلبية لحالة التطور الفني التي اكتشفها العرب باحتكاكهم مع الأمم الأخرى، فقد كان العرب "كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث، وخرافات وأساطير، يقضون بها أوقات الفراغ، ويصوّرون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون"⁶ ومن رحم الرحلة خرجت القصة عبر محكمياتها أو محكميات مقتبسة من خلالها، حتى استقامت جنسا أدبيا مستقلا بذاته.

3 . الرحلة وطقوس التحول

سيصبح الذهاب والإياب في الرحلة حاضنا لكل النشاطات ووراء كل الأحداث ومؤطرا لكل الخطابات ومستوعبا لكل القضايا والتطورات، فهو يتشكّل بالعين والأذن وبقية الجوارح، على ما يتاح من التقاطات ومن تفاعل مع المشاهد والأحداث.. وسيصبح الخبر مادة مركزية، يسهم في نشاطات فاعلة على مستويات مركزية رفيعة.. ويحتل اهتمام هيئات رسمية وعالمة.

ومن خلال ذلك، ستتحقّق الرحلة إذن؛ مادة ثرية يتنازعها قطبان؛ القطب المعرفي الحاضن لمادة السفر المحتوي للرصيد التفاعلي المتراكم فيتشكل أهدافا وبرامج من خلال استقراءاته الذكية.. والقطب الفني، المتجسّد في محكميات الأخبار التي تتبلور هي أيضا فتفرّخ أجناسا أدبية (فنية) منبثقة عنها.. في حين لم يبق للخبر إلا دور الساعي حين تداعت عليه التراكمات فصيرّته حاضنا ومعينا وشافعا لرصيد مخلّفات السفر. ويحال إلى مهام أخرى أغلبها غير فني؟

فبينما كانت الرحلة تتشكّل مسارات تتقاطع فيها مقصديّات معيّنة بأفعال بريئة، تحوّلت مع الزمن آثارا ثقافية مائزة قفرت إلى مستوى النصوص التي يتوقف بناؤها "على عمق التحويل والتفاعل والتخصيب والتكيّف والحيوية، فالتداخل بين ما هو أدبي وتاريخي أتاح للسرد أن ينمو وينتظم داخل نسق مأهول بتفاعلات وبآثار شتى"⁷ احتضنها فعل القصّ الذي أصبح نسقا محوريا منبثقا من رحم الأخبار..

لقد ساعد عامل تأسيس دولة المسلمين الجديدة، في خلق دينامية كبيرة في الحركة والتنقل، تشجيعا من الحكام، نظير توسّع الدولة الإسلامية، حيث اقتضت الحاجة إلى ظهور مهام جديدة كالبريد والحزبية والخراج والحوسسة وغيرها، وذلك باستحداث نمط جديد في التنقل أسفر عن نشاط موجّه، قلب موازين القوة لصالح الجغرافية. فما كان لشأن الدولة أن يقوم لولا حركة المسالك والمسالك التي استفحل نشاطها من الأداء التبليغي إلى النشاط التألّفي، محوّلا ظاهرة التنقل إلى نمط جديد، سيصبح مع الزمن ظاهرة فنية تعرف بـ "أدب الرحلة" حيث إن "كل التحولات الإجناسية مرتبطة بتحول تاريخي أعم ويتحوّل في أفق العبر - نصية إلى سياق جديد يرتكز بدرجة امثالية النص الجديد"⁸ وهذا ما نجده في ضمير الموروث الثقافي العربي في شقّه الحكائي فقد "شكّل لنفسه بنية خاصة بعد تراكم أسهمت فيه قرون تنوّعت خلالها الثقافة العربية الإسلامية فأفرزت مواضيع عدّة ومتنوعة ظلت تتسع وتتمايز إلى أن شكّلت لنفسها مصنّفات، وانتظمت فيما بعد في أغراض وأنواع محدّدة كالحكاية والأخبار والأساطير والخرافات. وقد نهضت الأنواع القصصية الكبرى كالحكاية الخرافية والسيرة والمقامة على موروث إخباري"⁹ وبناء عليه فقد عرف فعل الرحلة تحوّلا كبيرا بإيجاد مسوّغات ثقافية مكّنته من احتلال رتبة أخرى في سلم الأدب، صارت من خلاله نشاطا تفاعليا، ولم تلبث مقتنصرة على نقل الأخبار أو خادمة للجغرافية، أو محافظة على إرث المرويّات الأدبية والتاريخية والدينية، بل استفحل أمرها إلى صناعة مجدها وخادمة نفسها بنفسها ما دام أنها تمتلك جواز الغاية والوسيلة في الآن نفسه. وأصبحت لا تلي طلبات الغير إلا بعد القيام بواجبها اتجاه نفسها، بل صارت تهيمن على طاقات أخرى وتسخرها خادمة ما دام أنها تمتلك كل الفضاءات الفعلية والسردية والشعبية، وباتت منتشرة "في الكلام والكتابة، أو في الثقافة الشعبية والثقافة العاملة، متّخذة من طقس السفر - المكوّن المركزي في الرحلة - مهادا محفزا على اكتشاف

العالم من جهة، وابتداع طرائق الكتابة من جهة ثانية¹⁰ ولم يبق المسافر ذلك الذي تضطره الظروف للبحث عن سبل الحياة، بل قد احترفها أصحاب ميدان، ويراغ، وبصر وبصيرة، واستقلت بذاتها تشكّل نمطا فريدا في الحياة الأدبية.

3 . 1 . الرحلة الفن/ الجنس الأدبي:

تأسس الرحلة جنسا أدبيا بفعل الخصائص المائزة للنوع التي احتلت مساحة كبيرة من جسد خطاباتها المشبعة بثقل العناصر المؤثثة.. فتتشكل نصا من خلال بناء متميز تتحاذبه أطراف السرد المفعمة بتقاليد النصوص السابقة، وفق عملية تقلب بين الوصف والسرد، والاستطراد، دون الحيف عن مسار الرحلة المقدر بزمن مسافة الانطلاق (صفر) وتدرجها إلى مسافة طريق الذهاب والعودة (نهاية السفر)..

لقد بلغت الرحلة درجة العشق عند أكثر القراء، من فرط تشويقها وطريف حديثها ومؤهلاتها في نقل الأخبار برشاقة أسلوبها وسلاسة عباراتها، ورونق صورها.. إلا أن ذلك لم يشفع لها لدى المؤسسة النقدية في الاعتراف بها كجنس أدبي مستقل، بل أفاضت عليها الحديث بوابل من التهم كونها مشتتة الأوصال، مختزقة الأطراف، مستوعبة لكل الأشكال غير مخصصة للأساليب، متشظية النصوص.. ولم يجد نفعا ما تحمله من طاقات جمالية وطرائف نادرة، وطول مسارها الحافل بالإنجازات، ذلك أن المؤسسة النقدية ضيّقت واسعا في أول الأمر حتى باتت مقاس النص الرحلي لا تستوعبه سعة معيار القالب النقدي.. فلم تحرره إلا تيارات النقد المعاصر العاتية، وحكمت محكمتها بالاعتراف لها، ما دام أن لها جمهورا لا يستهان به "فما دام القارئ له علم مسبق بأن المسار الذي سيقطعه السارد هو السفر وليس البنية الحكائية، فإنه يكون مهياً لتقبل هذا التشّت باعتبارها شكلا من الكتابة لها نكهتها الخاصة. ألا يكون إذن تشّت الرحلة هو سر جمالياتها؟"¹¹ وخلصت القضية بعد هذا الحكم لتتنفس الرحلة نسيم الاعتراف .

3 . 2 . الرحلة/ النص

لقد بلغت الرحلة من التراكم العيني لنصوصها المتدرّجة والمستدرجة من البسيط البريء إلى المركّب المعقّد، جملة من الثوابت القارة حافظت ولا تزال تحافظ على قوام النص، في هيكله العام، مانحة إياها خصوصية النوع تحت ظل شجرة الجنس التي كانت تغطي طائفة من الفنون، قبل أن

تستخلص الرحلة لنفسها من خلال شعار السفر الكفيل (الوكيل) بمنح التركيبة النصية لصالح طرف على طرف، دون أن يتماثل هذا الجسد إلى التحنيط ما دام أن الرحلة قابلة للتخلي عن محطة أو محطات دون إخلال بشكلها العام (النمطي)، بل يبقى ذلك مرهونا على طبيعة الرسالة التي يريد الرحالة إبلاغها، مع مراعاة خصوصية كل عصر، من حيث ظروف السفر ووسائل النقل والمواصلات التي ترهن كثيرا من محطات السفر، التي هي في الأساس محطات سردية..

لقد خدم التراكم والتداخل والتعارض في نصوص الرحلات والمسالك طبيعة النوع الصافي المحقق ضمن معيار نقدي.. لم يكن للرحلة أن تحجز مقعدها ضمن التصنيف لولا شراسة التدافع بين الأنواع الذي أضر بالأشكال الطفيلية في حين حافظت الأشكال الأصلية على مقعدها دون منازع. بعد أن كان النص الرحلي ذا انتماء إلى النص الثقافي العام.

يجب أن نقرّ -هنا- بأن الدراسات التي راجت في العقود السالفة متبّية تتبع خطى الرحالين بالدرس والتمحيص، لم يكن لها أي دور في إيجاد مسوغات أدبية لتلك النصوص التي كانت تقوم على الاعتراف الضمني المعيب عنه إقرار النقد، فما كان منها بعد هذا التخطّي السليبي إلا القول بما قاله الرحالة نفسه في أشطار ومقاطع تتناسب مع مساحة وطبيعة بحثية ضيقة، تنويها لا غير، أو رصدًا لصورة أو حدث من أجل الاستشهاد العام..

إن الحديث عن النص هو الحديث عن البناء، ولا يقوم بناء النص السفري إلا انطلاقًا من مخطط واضح المعالم، يتمثل في السفر كبنية مهيمنة.

إن طبيعة النص تتمثل في العملية الفنية فهو ليس مخلولا لأي مهام أخرى جمالية أو استراتيجية تخوض في جانب الصياغة، بل تكمن وظيفته في ضمان أدبيته من خلال تقنيات، تنضبط على اقتداء حتمي لفعل السفر، في إطار إعادة إنتاج إرضاء للفعل. وليس لفعل السفر دور فيما عدا البرنامج المجرد لمخطاته، بينما الذات هي من تتولى تفسير القيم من خلال هذا البرنامج، الذي تكمن قيمته في تقييد مجال الكتابة، ما دام "السفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكّننا من تلمّس خصائص الكتابة، ما دامت الرحلة نوعا أدبيا يقلّص من دور المصادفة، ويقدم لنا، بقدر كبير، قواعد إنتاج النص وقواعد تلقيه معا"¹² بالنظر إلى التعديلات التي مسّت بنيته في مرحلة تحوّل من الشفاهي إلى الكتابي، تمثلت في جملة من المقاصد تعارفت عليها فتواضعت، وهذه البنية

هي نموذج من البنيات الصغرى، التي أضافت للمتن المركزي تركيباً إضافياً تضمن بنيات مناصية-عتبات- لا بد من إدراجها كحلقات ذات أبعاد قصوى في النص، فصار بذلك نموذجاً للنص الرحلي عموماً.

3. 3. الرحلة/ السرد

إذا لم يتحقق السرد في الرحلة فإن شرعيتها باتت مهددة، بل لا نعتقد أنه في استطاعتنا أن نتحدث عن نص رحلي إذا لم تتوفر فيه ملامح السرد.. فبغض النظر عن كون النص يشتمل على مادة دسمة أسلوبياً أو حرارة أدبية، أو لم تشتمل عليه، فإن العمل السردى يقوم في النص الرحلي على حركة الزمن وتقنياتها المؤطرة لمسافة السفر.

إن التاريخي والأدبي كلاهما سواء؛ يندرجان في عمل واحد أو ربما يمتازان بخاصية التفاعل الكبير بينهما ما دام أن المادة التي يحملها النص مادة خبرية تحمل موضوعاً سيختصه التاريخ لنفسه ما لم يُصنّف عليه طاقات تخيلية وجرعات بلاغية تحيي فيه روحه الفني. فتراجع أحدهما في مقابل الآخر رهين التوتر بين الذات والموضوع، فقد "لا يعد كافياً، على أهمية ذلك تصنيف الرحلة من حيث موضوعها، بل يجب التعامل، دون إلغاء الموضوع، مع طبيعة معالجتها للمرئي بواسطة خطاب له خصوصيته السردية أولاً، ثم المضمونية ثانياً"¹³. فأحياناً يكون الموضوع هو شغل النص الشاغل، تتراجع الذات إلى الانطواء ليس لها من سبيل في تحقيق أهدافها ما دام أن صاحب المشروع السردى خطط لذلك بغية التقرير لحدث معين. في حين قد يتراجع الموضوع وتحل الذات مهيمنة على مسارد النص، تراود الأحداث والمشاهد وكل الغايات، وتطغى في مرادفها مذوّتة إياها بصبغتها الذاتية حتى لا تتملص منها، متخذة إياها معبراً للمرور إلى غايات تتجاوز الواقع إلى فضاءات فنية، قد تندرج إلى عالم الأسطورة.

سوف تكون الرحلة بهذا المنطق حكراً على السارد، فما دام السارد في الرحلة هو كاتبها، فلا مناص من أن يكون التفويض له مطلقاً. إن السارد في هذه الحالة سيلعب دورين؛ مسرود له ثم سارد. يتموقع مسروداً له لأنه يسعى من أجل إبلاغ ما يريد تبليغه أن يتوفر على مادة معرفية يتأسس عليها فعل السرد، وفي هذه الحالة يكون السارد محضراً جيداً للعملية السردية بعد اكتمال عدته، حينها يقوم بإعادة "صياغة العالم المرئي بمعجم جديد يمزق فيه بين الحفر الإيكولوجي،

والالتقاط المباشر. كما أن هذا السرد، ونظرا لشساعة الفضاءات، يركز فيه الرحالة على الصورة السردية التي تركز أساسا على خلق لوحات مكونة من صور ملتقطة بواسطة عين السارد، عبر صنعة بيانية للمسرد¹⁴ وليس باستطاعتنا القول عن أي منجز رحلي بأنه أدبي أو غير أدبي ما دام أنه يتشكل سرديا قابلا للحكي، بينما استفحال الجمالية البيانية سوف تجعله مرغوبا فيه أكثر، دون أن تنتفي السردية عن التقرير ما دام أنه يحمل الجينات النصية نفسها.

3 . 4 . الرحلة/ التاريخ

يستأثر علم التاريخ بمادة الرحلات كمصدر مهم من مصادر الدراسات التاريخية، وهي في نظره المادة الدسمة التي فيها ماء الحياة لعصر الرحالة تتجسد فيه البيئة الحقيقية "خاصة وأن الرحالة أديب وجغرافي متنقل، ومؤرخ وفقه وعالم اجتماع، وقد يطغى جانب على آخر بحسب ميل الرحالة"¹⁵ يحقق ما لم يتوفر في كثير من كتب التاريخ، التي غالبا ما تحمل الحديث عن الطبقة الدنيا أو المتوسطة من المجتمع، وتظل تراود بطلها الزعيم أو الحاكم أو الوزير أو الحاجب، دونما مراعاة لتلك الفئة، كما أنها لم تنتبه في كثير من الأحيان إلى الطقوس والعوائد في جانبيها الاثنوغرافيوالأنثروبولوجي، بل حتى المكان لم يدرج بشكل كبير.. في حين يتحقق كل هذا وغيره في مدونات الرحالين "فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها، لأنها تستخدم الجغرافيا، وتستند إلى التاريخ عند التعرض لوصف المسالك والمدن والمعالم وبدايات الأمور، بل ورصد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة لديهم، وكذلك الاقتصادية، ويتبعها السياسة بنسب متفاوتة وعرض ذلك بزي الأدب وطابعه"¹⁶ لأن الأدب هو الذي ينزل إلى الشوارع والشعاب، ويشارك العامة طعامهم وشرابهم، وملبسهم، ومجالسهم، وأفراحهم وأتراحهم، وآمالهم وآلامهم، ويلتزم التقييد في كل لون من ألوان الحياة، كما يمكنه أن يشارك الخاصة مجالسهم وسياساتهم ومعارفهم وفنونهم في الحياة المدنية والمعرفية، وهي جميعها تشكل علوم الحياة "ف نجد الرحلات مزيجا من تلك العلوم مجتمعة، ومن ثم لا يمكن تصنيفها في جانب على حساب الجانب الآخر، فكل ناحية تنظر الإخراج للإفادة منها، وكثيرا ما أظهرت الرحلات أسماء علماء لم تكن لتظهر لولاها"¹⁷ لكن في الأخير يظفر بها علم التاريخ لأنه جامع معرفي لكل هذه التخصصات حيث يدرس تاريخها، وأنماطها، ويستنبط منها مادته التاريخية إسقاطا على المسائل المطروحة والبيئة الثقافية والنوازل، وأمهاات الأمور.. "فهذه

الجوانب كلها كتبت بحسب ما شاهده الرحالة ولمسه، ولا شك أن هذه الأمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة التي انصبَّ اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية¹⁸ مما يشفع للرحلة أن تتبوأ مكانة معتبرة كهامش مهم لعلم التاريخ ف"هي عون للمؤرخ في معرفة الجديد عن تاريخ البلدان والأقاليم، والتثبت مما ورد إليه من معلومات تاريخية"¹⁹ فلا يمكنها في هذا الشأن إلا أن تتصدّر المصادر التاريخية أحياناً بالنظر إلى قيمتها المذكورة، وبالنظر إلى معاشتها للأحداث عن كتب. فهي تشارك بمادة تكمن قيمتها بالحكم على الأحداث من منطلق العيان (وليس الخبر كالعيان).

وسواء أكانت الرحلة عبارة عن تسجيل مجرد أم إنشاء أدبي، فإنها في كلتا الحالتين تظفر بالاهتمام التاريخي، ما لم ينزاح الأدبي منها إلى الغرق في الذاتية أو الغريب والخارق - كما سنرى في حينه. - "ونستطيع القول: إن ثمار الرحلة يتعذر حصرها، ولاسيما إذا كان الرحالة متمتعاً بقوة الملاحظة، وشهوة التطلع، ويقظة الحواس، والرغبة في التحصيل، والحرص على التدوين والتسجيل"²⁰ ما يجعلها تثير شهوة المؤرخ والأنثروبولوجي والايثنوغرافي والتوبونيمي ومجالات علمية أخرى.

4. الأدبي والتاريخي في الرحلة/بؤر الجدل

بين الأدب والتاريخ ملازمة طويلة، وصدقة متذبذبة.. ثم أدوار متبادلة في خدمة طرف لآخر، وهي أدوار متعكسة؛ الأدب يحتاج للتاريخ كموضوع وكمادة يستحضرها مسترجعاً إياها بالتخييل عبر شخصياتها وأحداثها، ورموزها ومقوماتها الحضارية، فعالباً ما يقودنا الحديث في هذا المجال عن استفادة الأدب من التاريخ.. ذلك أن الشعر يأخذ من التاريخ كواقع، والرواية أيضاً تتخذ من التاريخ مادتها الخصبية، وكل الأجناس الأدبية تفعل ذلك.. بينما تمثل أشكال أخرى صورة عكسية يصير فيها التاريخ هو المستفيد من المادة الإبداعية، ويتعلق الأمر بالأدب الشخصي (السرود الذاتية: السيرة الذاتية - المذكرات - الرحلات ...). ويصبح أكثر أهمية عندما يتعلق بأدب الرحلة، ذلك أن الرحلة تختلف عن أشقائها من جنس الأدب الشخصي بتجسيد المكان كبؤرة محورية تدوسها أقدام الرحالين وتلتفت أعينهم فيها يمينا ويسارا، وتستقضي المكان من كل زواياه فتأخذ جوانب من الأحداث في الزمن المحدد والمكان المعين.

4 . 1 . تقاطعات وتباينات:

تقوم الرحلة في بنائها على جملة مكونات هي؛ عناصر تتداخل وتتفاعل فتنشئ نصا فريدا يحمل خصائص مائزة لنوع معين.. يُجمع المهتمون ومن خاض البحث في هذا المجال أن النص الرحليّ نصّ عصيّ عن التصنيف؛ حربيّ/زئبقي/ مختل/... لكنه يتشكّل أخيرا في ذهن القارئ المتمرس نوعا خاصا يحمل جينات الجنس. فليس صدور أحكام الاستعصاء إلا بعد ما يصير قطعة مستقلة تقف ماثلة بين يدي قارئها.. أما بعد ذلك فتصير مثارا للجدل ومجالا للحديث وعرضة للتغامز والتدافع.. مما يميلنا إلى عملية تقصي من أجل تحديد مجالات التنازع التي بات فيها الصراع قائما حول أدبية الرحلة من عدمها.. أما الاعتراف بشكلها الرحلي فقد بات من المسلمات.

ذلك أن الرحلة نشاط قائم على الفعل وعبر الكتابة، لا ينكر عليها أحد، وهي في غنى عن إقبالها أمام أبواب المؤسسات النقدية تطرقها من أجل صك الاعتراف.. فنصّها ثابت، بيّد أن الاختلاف في أدبية هذا النص -كما سبق- المسكون بمواجس إبداعية متذبذبة، يبعث الشك والريبة في نسبها لا إلى الأدب فحسب وإنما إلى كافة المؤسسات المعرفية حيث يُعدّ "انتساب الرحلة إلى العلوم الإنسانية مسألة معقّدة، لأن الرحلة هي رحلات بحسب تيماتها وأصناف رحلاتها... تحولت من المعيش المادي أو الحلمى -الاستيهامي إلى نص تحيّل أساسه، في الحالتين، التجربة "الخارجية" و"الباطنية"²¹

ولعل هذا الالتباس ناتج عن طبيعة الرحلة في محمولها الأدبي والتاريخي المتذبذب بين التقاطع والتباين فيما ترسمه حدود المحددات التي نحاول إيرادها فيما يلي:

4 . 1 . 1 . النص / وجه التقاطع :

تشكّل الرحلة نصا، من خلال دعائم أساسية صارت نمطا في البناء، وصار هذا البناء ضامنا لاستقراره النموذجي، لم يحصل عليه هبة، ولم يأت عفويا، إنما هو تشكيل متدرّج عبر مراحل النمو الطبيعي لتطور الأشياء، ف"كل نص يكون مسكونا ومسبوقا بتأمل وإدراك أهميته باعتباره شكلا أقدر على استيعاب تجربة معيشة أو متخيلة، فحينها يختار الرحالة سكب حصيلة تجربة شخصية في قالب سردي يروي مشاهد الانطلاق والوصول، فهو يؤكد تشبته بأسلوب معين دون غيره"²² وما

دام الأمر كذلك فإننا ندرك بأن النص شكّل ثابت وفق أنماط معيارية محدّدة، استقر عليها، ذلك أن "العمل الفني أيا كان نوعه هو بناء شكلي في المقام الأول"²³

فلا شك أننا في هذا الشأن كله، لم نصل إلى الفصل في أدبية الرحلة من خلال المعيارية الجمالية، وليس من حقنا الحديث عن ذلك، ما دام أن الأمر يتعلق بالهيكل الفارغ من محتواه، أي الحديث عن سطح العمل باعتبار أن "البنية السطحية النصية الأكثر إدراكا ومعاينة"²⁴ وهذا هو المعوّل عليه في العملية الاجناسية التي تعتمد إلى الثبات، والثبات موئل الجنس²⁵، ولأن العملية الاجناسية قائمة على القوانين المحدّدة له، فلا يمكن تحديد قانون معين على موضوع غير قار، بل لا بدّ له من قيم ثابتة حتى تتحقّق فيه صفة الجنس.

ومن هنا؛ ليس لنا الحق في الحكم على الأدبي أو التاريخي، فكل منهما يتبنى أبوة هذا الجنس ما دام أن النص جامع لهما، وما دام أنهما يقبلان شرط التجاور المطلق بتعالقه وتوامقه وتفاعله من حيث إن "الرحلة جولة في الفضاء الحاضر، بينما التاريخ جولة في الزمن، في الماضي. الرحلة وصف، والتاريخ سرد"²⁶ والرحالة في كل الأحوال يسرد ليصف ويصف ليسرد²⁷.

وبما أن فن الأدب وعلم التاريخ ليس مجالهما الرحلة تحديدا، فقد تعدّد أجناس الأدب كما تعدّد مصادر التاريخ، بيد أن مجال الرحلة قدرهما ما دام أنها عملية فنية صرفة تقوم على الذهاب والإياب، في وعي وإدراك تام، بما يتأسس عليه النص، متنا، وقبل المتن وبعده، فلا يقول قبله إلا ما يدعم أركانه من عتبات، كما لا يقول بعده إلا بما بلغه في محطة الوصول.. فهما يتحملان عبء هذا المجال الذي دخلا فيه.

ومن هنا نجد أن الرحلة قد أسفرت عن استقلاليتها في تبني موضوعات تخصّها لنفسها، تأتي بها من فعل السفر وعبر محطات مساره، إن شاءت ألبيسته قشيبا من الثياب الأسلوبي، وإن شاءت تركته حافيا جافا.. ثم ليس لموضوعاتها من سبيل من الخروج عن طاعة النص وادّعاتها القدرة على فعل الإفصاح خارج قالب الرحلة.. لذا توجّب على ما كان للرحلة من موضوعات الامتثال لناطق رسمي ولسان حال النص، وهي "الرحلة".

ومنه يتبيّن أن الرحلة باعتبارها نصا تصلح للأدب كما تصلح للتاريخ في الآن نفسه.

4 . 1 . 2. الخطاب / الاختلاف والتضارب:

تتعدد مستويات الخطاب، ومجالاته إلى الحد الذي لا يمكننا حصره، ف "وجود خطاب أدبي يفترض وجود خطاب غير أدبي"²⁸، وهذا ما دلّت عليه الإشارات المختلفة (خطاب: سياسي - ديني - اجتماعي .. وهلم جرا) . إن حتمية الاعتراف بهذا الادّعاء سوف تحيلنا إلى التمييز في الخطابات التي يتأثتّ بها شكل الرحلة، ومن هنا سوف نمرّ إلى القول بأن الرحلة كغيرها من الأشكال الأدبية وغير الأدبية مآلها إلى محورين أساسيين يشكّلان التكامل العام للعمل (أدبي/ غير أدبي) وهما؛ النص والخطاب، فلما كان النص ثابتاً، فإن الخطاب هو صب ما يمكن صبّه في هذا الوعاء -الثابت- المستوعب لكل القضايا والموضوعات.

يمكننا أن ندرك نص الرحلة من خلال نمطية الشكل الذي يمرّ عبر معالم طريق دائري متسلسل المحطات، حاملاً تذكّرة السفر ويجوب بالاعتبات النصية في رحلة مستوية على مسار محدّد يحوّل له عبور المحطة تلو المحطة، إلى نهاية مطاف هذه الرحلة.

إن مسألة الخطاب التي يتأثتّ بها النص، ستكون حاسمة في تحديد الأدبي من غيره لأن "موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً"²⁹ فالبحث في الأدبية سيجعلنا نقف وجهاً لوجه أمام مأزق التصنيف الذي لا يستبعد أن يدخلنا في منازعات بين التاريخي والأدبي في نص الرحلة، ما دام أن خطّ الأدب ليس هو خطّ التاريخ، فإذا كان خطاب الأدب في المجالات الفنية له خصوصياته، فهل بإمكاننا أن نقول بخطاب التاريخ؟؟ وإذا كان هناك خطاب يعرف على أنه (خطاب تاريخي) فكيف يتشكل/ أو يتحدد؟؟

إن التاريخ ليس خطاباً، لأنه ليس موضوعاً في ذاته، إذا لم تتضافر جملة المكونات السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية .. التي تحوّل لوكيل شرعي التحدّث باسمها، بصيغ ماضوية، تكون فيه العملية قد تجاوزها فعل الزمن. يبقى التاريخ مؤسسة قائمة على حماية تلك المادة من الاندثار، وحفظها من الضياع، حتى إذا ما جاء وقت الحاجة إليها وضعها في طاولة التشريح لتكون عوناً على الحاضر والمستقبل.

إذا كان التاريخ ليس خطاباً، وإنما هو حافظ للخطابات ومساعد على تجسيدها، فكيف

نقابله بالخطاب الأدبي؟؟

وفي هذا الأمر سوف ندرك أن النص الرحلي بما أنه قد يحمل خطاباً أدبياً، كما قد ينتفى عنه عنصر الأدبية ففي هذه الحالة يتحول إلى مادة تاريخية وليس إلى خطاب تاريخي.. فهل يمكن للخطاب الأدبي أن يندرج ضمن المادة التاريخية؟

لقد أثبتت المكتبات العربية منها والغربية، كتباً في التاريخ الأدبي. بمعنى أن الأدب يمكن أن يقوم كمادة ثقافية ينسبها التاريخ لنفسه..

هل يعني هذا، أن خطاب الرحلة في كل الأحوال هو مادة تاريخية؟ وهل هذا هو ما نقصده بالجدل؟؟

بإمكان كل الخطابات التي تتشكّل في الرحلة أن تكون مادّة تاريخية.. بينما الجدل يقوم على متن الرحلة الذي إذا قام على الأدبية (الشعرية) سوف يتجنّب الوقوع في بركة التاريخ إذ لم تُعد له حينئذ سوى سمة الوثيقة.. فالليست كل كتابة عن رحلة ما تعد نصاً من نصوص السفر. وليس كل وصف للأمكنة المرتحل إليها يخلق نصاً منتسباً إلى هذا الجنس الأدبي، بل إن ذلك لا يتأتى للرحالة إلا إذا مزج بين التسجيل وبين الشعور الخاص تجاه المسجل، وإلا تحول الوصف إلى دليل *guide* مفرغ من كل إحساس مميز³⁰

وبالعودة إلى الخطاب الأدبي في الرحلة، هل يكتفي علم التاريخ بالتأريخ لهذا الخطاب انطلاقاً من بعده الأدبي، أم ثمة جوانب من مسائل أخرى تساعد على التأريخ للجوانب التاريخية المحضة..؟؟ إن تشعب الخطابات في الرحلة واحتوائها على التوقيعات التي يمثّلها الرحالة من خلال سرده للطريق عبر مسافة الزمن المعلوم وبؤر الأمكنة المعلومّة، ولقائه بالشخصيات الواقعية والهامة من مختلف أطياف الأمم والمجتمعات كالعلماء والفقهاء والمتصوفة والزعماء.. الخ. سوف لن يستغني عنها علم التاريخ باعتبارها وثائق هامة، تقف شاهدة على عصر وبيئة معيّنتين، ليس هذا فحسب، بل تُعدّ الرحلة في هذا المجال "حركة في الطول وفي العرض والعمق، تجوال في جغرافيا الأماكن والظواهر والأشياء، وإيغال في النبض الذي كاد يغيب عن العيان، ولكنه ما يلبث أن يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيداً للأصوات البعيدة، وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات"³¹ وهذا كفيل بأن تحقّق الرحلة ثراءها المعرفي، وقوتها الموضوعية وتجاربها الذاتية.

4 . 1 . 3 . حدود التملّص:

تخطى الرحلة _ النص أو الخطاب _ بمكانة معتبرة في مجال التاريخ، كونها تمثل تجسيدا واقعيا لفعل واع يقوم على التسجيل لعناصر الحياة المشاهدة والملتقطة سماعا أو خبرا، أو تقصيا.. فكيف ما كان نوع خطابها إلا ويستوعب درجة من المصدقية، تجعل منه نصا أثيرا لدى المؤسسة التاريخية..

بيد أنه ما دام كتاب الرحلة تختلف مشاربهم في الحياة، وأهواؤهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، وأمزجتهم.. وتتفاوت درجاتهم الفكرية والمعرفية، وتصوّراتهم الإيديولوجية، ومستوياتهم الاجتماعية، فإن ذلك يشكّل حتما انزياحا متأرجحا بين الذاتية والموضوعية في تدويناتهم الرحلية، على اعتبار أن الرحلة هوس طوعي غير مقيّد بإلزام، وغير قارّ في التزامه بميثاق مع القارئ.. وفي ظل هذا التحرر يغدو طفوح الذاتية مدعاة لمعيار يقلق التاريخ ويشكّل لديه التباسا على مستوى بنود الصرامة في دستوره.. مما يجعله يقدم رجلا ويؤخر أخرى توجّسا من جملة الاحتمالات أمام هذه المادة الزئبقية الحتمية، التي يبقى فيها التردد قائما، مادام أن التهمة الذاتية لا تصل حد الإدانة، لأن "المتخيل في الرحلة ليس كذبا وإنما هو عنصر فني ورؤية للأشياء تتضمن صيغا للتعبير والتأويل وموقفا من العوالم التي يراها فتصطدم بتصويراته القبلية وتتداخل، وبالتالي تصبح الرحلة ذريعة للتعبير عن آراء الرحالة وتأملاته الموصولة بأحلامه وخيالاته"³². إن لعبة التخيل المتغلغلة في النصوص الرحلية هي التي تجعل مادة الحقيقة فيه تتلاشى وتترجع إلى مصدر ثانوي، مدعم لمصادر أخرى يستأنس بها المؤرخ في تعزيز بحوثه للوصول إلى الموضوعية العلمية المرجوة.

4 . 1 . 3 . 1 . بؤر الجدل:

انتهينا إلى أن ميزان القوى بين التاريخي والأدبي في الرحلة يكمن في مجالي الذاتية والموضوعية، فإن ذلك هو مستنقع الصراع والريبة بينهما، فالذاتية والموضوعية تشكلان المعيار الأوحد بين الطرفين (الأدبي والتاريخي) في غياب ضوابط صارمة، لأن الرحلة في كل الأحوال هي الرحالة، بل هي ثقافة الرحالة وهواجسه، وما يقوم به من دور تجاه طرف على حساب طرف إنما هو - يقدم خدمة مجانية تتأطر في حتمية مجال سيره وحدود ثقافته.. إذا اقترب من الموضوعية في تقريره فقد جحف ينابيع الذاتية وإذا أطلق العنان للذاتية فسوف يحجب الموضوع بحجاب متفاوت السمك،

"فتشابك المخيلة بالتاريخ والواقع بالسحر (وتنتفي) إمكانية تحديد الواقع خارج إطار التخيل، والتاريخ خارج إطار السرد"³³ ويبقى بذلك عمر الجدل ممددا.

وبإمكاننا أن نحدد بؤر الجدل وحدود الفوارق التي ترجح كفة التاريخ على الأدب أو العكس في الرحلة، متمثلة في الآتي:

أ- الموضوعي والذاتي والمصدقية النسبية:

لا يمكن للرحالة أن ينتظم في عزفه لقطعته النصية على وتر واحد، في موضوع مشبع بالإسقاطات الذاتية، فبينما يُعدّ الواقع موضوعا فهو يشكّل مادة الرحلة، وما دام أن ناقل هذه المادة يتمثل في شبكة الرصد والانطباع المتحكم فيها من طرف الذات، فإن هذه الأخيرة مستودعها الكيان الإنساني بكل ما يحمله من نزعات وغرائز وميول عاطفي .. الخ..

وفي هذا الإطار سوف يتضمّن نصّ الرحلة موضوعا، ويكون هذا الموضوع غير مجرد من الذات/ فلا يمكن فصل الذات عن الموضوع، إذ لا يجد الموضوع من يحمله إذا غابت الذات، كما لا يمكن للذات أن تجد ما تحمله إذا غاب الموضوع.. فإثبات أحدهما تسليم بإثبات الآخر.. وفي كل الأحوال ستكون الذات هي العامل الأكثر إثارة باعتبارها العنصر الحيوي في هذه القضية..

إن الموضوع مادة النص الثابتة، والذات مسألة إنسانية لا تعرف الثبات، تتأرجح مع الموضوع قوة وضعفا بحسب الجرعات التي تدفع بها حركة التوتر المتأثرة بالموضوع وليس العكس، فتكون الذات في هذه الحالة هي ميزان القياس. فحضور الذات في العملية الإبداعية ميزان القوة لقياس درجة التوتر، المتراوحة بين الطغيان والفتور، والصدق والكذب، أو الانغماس والنأي، أو المشاركة والحياد..

وفي كل هذا تبقى درجة حضور الذات تشكّل إحدى أهم عوامل التنازع بين التاريخي والأدبي في محكي السفر.. فكّلما غرقت المادة في الذاتية كلما تضاعف احتمال الصدق، وكلما نأت الذاتية بعيدا أو تضاعف حضورها كلما برزت الموضوعية واشتدّ عودها. فبين الذاتية والموضوعية مثار جدل الأدب والتاريخ، كون الأدب ميالا للذاتية، في حين يميل التاريخ إلى الموضوعية..

ولعل القضية الإشكالية العالقة بين الطرفين تكمن في المصاهرة بينهما ومن خلال عملية تكامل في حدود التقاطع.. فتكون هذه الصلة عاملا للاشتراك تحت عنوان الاختلاف في الأدوار.

ب- عالم الممكن/ والمحمّل:

الرحلة رصد في عالم المجهول/ غير المؤلف.. بإمكان الرحّالة رؤية أشياء لا يراها صاحب المكان لشدة قربها منه. فالمؤلف عادة لا يشكّل حدثاً، ويأتي حديث الرحّالة عن اللامؤلف مطابقاً لصور الاختلاف التي ليس لها مقابل في جعبة الرحّالة ولا في محمول الرحلة.. فكل صورة أو كل حدث، أو كل مشهد لا يقابله نموذج في معارف الرحّالة يكون مثار حدث بالنسبة له.. هذا الالتقاط يتمحور في زوايا مختلفة:

- الرحّالة لا ينقل الصور المؤلفوة من عادات وجمال وسلوك (عادة) فهو يتوق إلى ما هو جديد بالنسبة له ويوليه من الأهمية أكثر مما يستحق.. وفي هذه الحالة يكون الرحّالة أمام مسألة جديدة قد لا يصل إلى حقيقتها أو قد يحكم عليها بالعكس.. وإذا كان هذا في عالم الأدب مقبولاً فهو بالنسبة للتاريخي يُعدّ أمراً نسبياً..

- الرحّالة يحكم على الكل من خلال الجزء.. وتُعدّ صور الواجحة التي تكون في استقباله هي عنوان الحكم (عادة).

- حُكمه على الأشخاص لا يكون إلا من خلال من يقابلهم في طريقه، فغالباً ما يحكم بالتعميم من خلال نموذج سيء، أو العكس.

- الرحّالة ليست مهمته التقيب والتحري، الرحّالة يطلع على السطح الظاهر من الصور، ومن خلاله يعطي حكمه انطلاقاً من نماذج بعينها.. وكون الصور الملتقطة عبارة عن ومضات، فأمرها يُعدّ نسبياً.. هذا عندما يكون الرحّالة معرّجاً بالأمكنة غير مطيل بها، وفي الحالات التي يطيل فيها الرحّالة إقامته فإن نصه الرحلي يفقد قيمته الفنية، ومردّ ذلك أن توترات التفاعل مع الأحداث والمشاهد تتحقّف حيويتها مع طول الزمن، ويكون مآل الموضوع فيه من الأدبي إلى التاريخي..

ت- الغرائبي بين استحالة التاريخ والممكن:

دخلت الرحلة عالم العجيب والغريب من بابه الواسع، وقد يبدو هذا متنافياً مع طبيعة الرحلة التي تعتمد إلى الواقعية في تشكيلها لموضوعاتها. بيد أن هناك عوامل عجّلت باحتضان الرحلة لما هو غريب وعجيب خاصة مع نصوص القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة، مع كل من ابن فضلان (ق 4) البيروني (ق 5)، وناصر خسرو (ق 5) والغرناطي (ق 6)، والقزويني (ق 7 هـ)، هذا الأخير

الذي يروي عن جبل "محيط بالدنيا وهو من زير جدّة خضراء منه خضرة السماوات ووراءه عالم وخلائق لا يعلمهم إلا الله" ³⁴.

ولسنا بصدد التوطئة لعالم الغرائب في السرد العربي القديم، أو الرحلات بشكلٍ أخصّ، فهذا كله مثبت في كتابات الجغرافيين القدامى حتى أن المستشرق الروسي كراتشوفسكي (Ignati Kratchkovski) أطلق عليها اسم "الجغرافيا الأسطورية" ³⁵.

ولم تكن الأسطورة غائبة في الثقافة العربية، واستعمالها في كثير من الأعمال الأدبية هو ارتقاء من الصورة (البلاغية) الجميلة إلى الخيال الخارق، في إشارة إلى بثّ الشك في موضوعية المادة المقدمة، فهي تنأى به إلى عالم الأدب المحض، تتسلل عن الذات والموضوع لتنفصل في عالم رمزي له مبرراته الفنية، ونسقه الثقافي. اقتداءً بأجناس أدبية موازية جعلت من الغريب والعجيب طقساً أدبياً مرغوباً، نزوعاً إلى باطن الإنسان بتدليله عن واقعه المقلق ومستقبله الموحش، نتيجة "ممارسة الضغوط الحياتية التي تجرد في الطقس والأسطورة شعيرة للهروب من عذابات الحاضر" ³⁶ وهي نابعة من "الآثار النفسية للتلقي والانفعالات التابعة للتصورات مثل الانبهار، والهول، والسحر، والخوف، والرعب، وما شابه هذا" ³⁷ تكييفاً مع الهواجس الإنسانية التي تجرد فيها بديلاً ينسبها واقعها ويبعدها عن عالم الحقيقة المر.

وينقسم العجيب في الرحلة إلى أقسام ثلاثة، يحقق كل قسم مبررات انتمائه تجاه الأدب أو التاريخ:

1- قسم يتعلق بالخوارق التي تفتقر إلى السند المنطقي أو الشرعي (المقدس):

ويتمثل ذلك في الحكايات الخارقة التي يستقيها الرحالة من سفره، ويمليها على الناس رواية على عهدته من أملاها عليه، أو على عهدته -هو-.. وبعدّ هذا الفصل من قوام النص الرحلي، الجزء المشحوب عند مؤسسة التاريخ، ذلك أن هذا العبث الخارق ليس له أساس علمي، وهو مشوّه للحقائق، فقد "أدت ضخامة هذه المرويات العجائبية إلى احتراز الثقافة العاملة منها" ³⁸ وهذا ما جعل (ابن خلدون) يشكك في صحة مرويات ابن بطوطة في رحلته معلّقاً عليها: "بأنه كان يحدث في شأن رحلته من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدث في دولة صاحب الهند، ويأتي في أحواله بما يستغربه السامعون" ³⁹ ويرجّح نواف الجحمة "أن ابن بطوطة كان يسند مثل هذه الأخبار

إلى العامة، والعامة كما نعلم مولعون بتصديق الغرائب والأكاذيب، غير أن مثل هذه الأخبار إذا كانت تتعلق بإعجاز ديني...⁴⁰ وإذا كان الجانب الأدبي له تفسيراته في هذا الشأن من خلال تأويلاته، فإن رسّ النصوص الرحلية بمواضيع يستحيل إثبات حدوثها في الواقع، يوقع القطيعة بين التاريخ والرحلة. ولا تعود لها أية مصداقية في هذا الباب.

2- وقسم خارق؛ يتعلق بالكرامات: وهي قبس من المعجزة التي لا يفسرها المنطق البشري، فهي جانب خارق متمفصل في ثنايا البعد الميتافيزيقي لدى التجربة الإنسانية بأبعادها الاعتقادية الغيبية التي تتجاوز المؤلف والمحسوس، لتعطي للشخصية القطبية تركيبة للتفوق على أقرانها من ذوي الجنس الواحد، فتجسده في مرتبة فوق رتبة البشر العاديين، فهي مرتبة شبيهة بمراتب الأنبياء..

وتشكل الكرامة عالما عجائبيا خليقا بأن يصنّف ضمن رواق الأدب بأبعاده الفنية التي تحمل للمتلقي بعدا ترفيهيا، بنقله عبر عوالم مختلفة تستطيع أن تخلخل فيه روح النمطية وهي جديرة بذلك، حيث تمثل النضج الفني "لأنها حملت خصائص الفن القصصي المثير والممتع. لما تضمنته من حدث غريب ومفاجئ يسرد على نحو مشوّق. ثم اشتمالها على خيال واسع وحوار جميل"⁴¹ يستثمر فيها الجانب الأدبي تغلغله في مكان من النصوص السطحية والعميقة، لأن هذا النوع من الأدب ليست له ضوابط مستقرة أدبيا وإن تمثّل استقرارها مقدسا، مما يدفع الباحث إلى إيجاد صيغ مختلفة في تناول هذه النصوص، وهي حسب (شعيب حليفي) "الجانب الثري في الأدب العربي، من حيث تضمنه العديد من الخوارق، والتي يتم إدراجها ضمن كرامات أولئك الشخصيات مقابل معجزات الأنبياء"⁴². وعلى هذا المستوى الأدبي (المحض) تتجسد الكرامة في موقع تحفّظ التاريخ على الاحتمال المبطنّ مابين الحقيقة والمبالغة واحتمال انعدام الصدق، أما في جانبها الأدبي فإنه "رغم ذلك يتقبلها القارئ بصدر رحب لأنه يدخل في اللعبة النوعية، ويضع معتقداته بين قوسين"⁴³.

نشير إلى مثال من هذا النوع، يقول الرحالة العشعاشي: "فوجدنا المحطة مملوءة برجال الشرطة وكلهم فرنسيون معهم مسلم واحد، يسألون عن الشيخ، ولكأن الله أعمى بصائرهم فلم يروه إلا الشرطي المسلم فإنه رآه وقبل يده وطلب منه الدعاء"⁴⁴. ويقول أيضا: "وتابعت سفري إلى تونس العاصمة للحقّق بشيخي، فوجدت الفقراء التونسيين في محطة القطار بأمر

من الشيخ الذي علم وقت وصولي بإلهام من الله، فهذه أيضا إحدى كراماته، ففرحوا بي وقادوني إلى المكان الذي نزل فيه الشيخ. فلما رأيته عانقته وسلمت عليه وأخبرته بحفظ الله لي في الطريق ببركته، وبقيت معه في ضيافة الفقراء التونسيين ثلاثة أيام كلها أنس ونشاط وذكر ومذاكرة، ولقينا من إكرامهم الكثير"⁴⁵ إن ما يتعلق بالكرامة في حدود هذين المثالين، وقرأة في التاريخ الصوفي، ومقابلته بالمرويات سواء عند الثقات من الرواة أو من الأحاديث النبوية، فإن هذه الأحداث مستفحلة كثيرا في تاريخنا الديني، لذلك قد لا نستطيع إنكار ما جاءت به الرحلات من كرامات، كما لا يمكننا تصديق كل شيء، ما دام أن الأمر له سند ديني قوي، وما دام أنها أيضا، متعلقة بباطن الإنسان لا يستطيع الكشف عن حقيقتها إلا صاحب التجربة وحده دون غيره، فهو المطلع على أحوالها دون غيره.

3- أما القسم الأخير فهو ما يتعلق بالعجيب من أمر منطقي ليس بمقدور الإنسان (الرحالة) أن يبلغه بعقله ويستوعبه بفكره، نتيجة الاختلاف الحضاري بين مستويين متفاوتين: وهي قضية مرتبطة بمرجعية الرحالة، ولم يكن وجه الغرابة في حقيقة الأشياء المتعجب منها، بل عدم معرفة الأسباب التي تحقق بها ذلك الأمر. فالعجيب هنا فعل إحساس مرتبط بالملتقي وليس في العجيب نفسه.. لأن هذه الأشياء التي تبدو في أول الأمر خارقة وغريبة، سرعان ما يتبدد عنها حجاب الغرابة من خلال معرفة الأسباب، وكما يقال في المثل الشائع "إذا عرف السبب، بطل العجب".

نلاحظ مثلا هذا الوصف لرحالة جزائري سافر إلى فرنسا سنة 1852، فعندما اطلع على عملية التواصل بالهاتف، ولم يكن يومها في الجزائر ما يشبه هذه الظاهرة، علق قائلا: "طرفها بباريس والطرف الآخر بمدينة ليون يبعثون بواسطتها الخبر من باريس إلى ليون ومن ليون إلى باريس في مدة طرفة عين، بل يحدث الشخص في باريس جلسه بليون، مع بعد المسافة بينهما، والمحقة أنها مائة وتسعة عشر فرسخا فرنسويا، ولم ندر كيف يصنعون، لأننا رأينا لها مثل حركات السنيال الذي عندنا في بلاد الجزائر"⁴⁶ وفي مثال آخر يقول: "وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان لا يجتمعان، فرأينا الثلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل. لكن ليس الخبر كالعيان فوقفنا باهتين"⁴⁷، وهذه

خلاصة التفسير، والشاهد على ذلك حين يعترف الرحّالة نفسه، أنه لو حُدث بما شاهد ما كان ليصدق الخبر. وكل ما في الأمر أن هذه ظاهرة علمية قد لا يبلغها إدراك الإنسان في حدود ضعف طاقة استيعابه للظاهرة. وهي الحالة التي لا نجعلنا ننكر الظاهرة من أجل سذاجة فكر وتعطله. وقد أقرّ ذلك القزويني من قبل بقوله "العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه"⁴⁸ ولعل الآيات الكونية تتّصف كلها بالظواهر الغريبة، لولا أن ألفتنا لها قد بدّدت من عجبها.

إن صورة العجيب بهذا المنطق تتلازم مع الأدب، في صوره الساذجة، فتضيف للمادة الأدبية نكهة، وتحيل على مرجعية الرحّالة ليس على مستواه الفردي (الشخصي) فحسب، بل على مجتمعه كلّ—أيضا.. فصيح الخطاب فيها تدرج في سذاجة بليغة دون مبالغة، وتوحي بنمط معيّن من درجة الوعي واللاوعي في الآن نفسه، لتؤرخ لشأن مجتمع بكامله. يقف فيه التاريخ محلّلا لمرجعياته الثقافية، لأن الرحالة في ذلك كان صادقا في وصفه، أمينا في نقله وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان..

خلاصة:

يبدو من خلال تدرج البحث، أن الرحلة يحكمها قطبان؛ قطب معرفي وقطب فني، المعرفي يتراوح بين المادي والفكري، وهو عبارة عن مكتسبات وتناقض تحصل للرحالة أو يكتسبها من خلال سفره لتحقيق روح الحياة القائمة على التطور والنفعة.. والقطب الثاني، وهو القطب الفني، الذي وإن بدا شيئا هامشيا إلا أنه يمثل ذروة نشاط الإنسان وطقس من طقوسه الثقافية المتشكلة روحا يسري في عروق جلالته وجدانه، وهي روح القصص والأخبار والمحكيات..

ومع تطور الحياة تطوّر القطبان وصارت المكاسب ترقى إلى العلمية، والفنية ترقى إلى صناعة النص، وقد تشكّلت أنماط كثيرة وأجناس وأنواع تنازعت داخل النص الرحلي تولّف فيما بينها، وتنشئ من عالم الإنسان سبل نشاطاته ودروب حاجاته، فغدّت تتماس مع طبيعة الإنسان وطقوسه في الحياة.. حتى اهتدت إلى تخصصات معرفية وأخرى فنية تماشيا مع طبيعة الإنسان في محيطه وفي بيئته وفي أحواله..

لا شك أن الرحلة هي هذان القطبان معا، هي مزاجية مزاج الإنسان، تركز للذاتية فتطفح تارة وتحوض في الموضوعية أخرى فتجحف، فمعيار الأدبي والتاريخي في الرحلة يتباين بين الذاتي

والموضوعي، إذا تعاضم التاريخ تنكّر للأدب وإذا استفحل الأدب عبس في وجه التاريخ، فالنص الرحلي لا نعتبره معياريا بين هذا وذاك، وهو في كل الأحوال يصنع مجد أحدهما، أو يصنعهما معا. فما دامت النصوص تميل إلى السرد الشخصي فإنها سوف تحقّق مراد الاثنين معا، ذلك أنّها تخضع لميول الإنسان والميل لديه إما يمينا وإما يسارا، ولم يخلق الله البشر على قلب رجل واحد... إن طبيعة الاختلاف عند الإنسان هي من يصنع التفاوت ويخلق التنوع ويساوي بين مجالات حياته.

الأدب والتاريخ وجهات لعملة واحدة في النص الرحلي، إن توجس أحدهما من الآخر أو حضور أحدهما دون الآخر في نصوص كثيرة لا يعنى الطلاق بينهما، بل هي طبيعة في النص الرحلي تتجسّد في خاصية تذبذبه.

فلا شك أن طبيعة الرحلة هي طبيعة الإنسان، وأن حياة الإنسان في مسعاه المادي هو الجانب المعرفي الذي يتبلور في تاريخه بما أن التاريخ يجمع حصيلة الأفكار والتحوّلات والنشاطات والأحداث، ويؤرخ للعلم وللمعرفة ولحياة الفرد والمجتمع.. أما في مسعاه الروحي فهو الجانب المتجسّد في عالمه الوجداني يتفاعل مع عواطفه في مسرّاته وفي أحزانه، ينشد الرضا والسخط، تراوده الغرائز والأهواء والنزوات، وتكسر ظهره الهموم والكروب والشقاء، فيغني سعادته ويغني أيضا آلامه وأحزانه، يفتح أبواب الأمل قبل أن توصل في وجهه.. الأدب والتاريخ، لا يتلازمان اعتبارا، ولا يتزاوران إلا من أجل نسل هجين يحقق مادة ذات نوع خاص لا يتحقق إلا في الرحلة.. فالرحلة لا تخرج عن كونها رصيد جامع بين المعرفي (التاريخ) والفني (الأدبي).

الهوامش

- 1- أنيس منصور، أعجب الرحلات في التاريخ، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ط13، 1995، ج 1، ص 4.
- 2- نفسه، ص 3.
- 3- شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 24، 2003، ص 399.
- 4- سعيد يقطين، الكلام والخبر - مقدمة للسرد العربي -، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1997، ص 195.
- 5- عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1972، ص 236.
- 6- زكي مبارك، الثر الفني في القرن الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2009، ص 185.

- 7- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ط1، ص 18.
- 8- ينظر جان ماري شيفير، ما الجنس الأدبي، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2006، ص 55.
- 9- عبد القادر بن سالم، السرد وامتداد الحكاية- قراءة في نصوص جزائرية وعربية معاصرة-، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009، ص13.
- 10- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر -مستويات السرد-، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006، ص 26.
- 11- حميد الحميدان، المحتمل في الرحلة العربية، مجلة جذور، العربية السعودية، ج14، مج 7، رجب 1424 - سبتمبر 2003، ص 480-481.
- 12- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، 1993، ص127.
- 13- الرحلة المغربية في القرن 19، مرجع سابق، ص 11.
- 14- نفسه، ص13.
- 15- عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى ، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2008، ص 19.
- 16- نفسه، ص 25.
- 17- نفسه، ص 25.
- 18- نفسه، ص 25.
- 19- حسين فهمي، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 52.
- 20- عواطف بنت محمد نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز، الرياض، م ع السعودية، 2008، ص 25.
- 21- الرحلة في الأدب العربي، شعيب حليفي، مرجع سابق، ص 39.
- 22- نفسه، ص 45-46.
- 23- عادل مصطفي، دلالة الشكل -دراسة في الاستطيقا الشكلية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 49.
- 24- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، -الزمن، السرد، التبغير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997، ص 43.
- 25- بنظر الكلام والخبر، مرجع سابق، ص 219.
- 26- الرحلة المغربية في القرن 19، مرجع سابق، ص32.
- 27- ينظر عبد الرحيم المودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص 7.
- 28- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط2، 2003، ص 19.
- 29- إبراهيم الخطيب، نظرية المنهج الشكلي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1982، ص 10.
- 30- الرحلة المغربية في القرن 19، مرجع سابق، ص28.
- 31- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، دمشق، 2006 ص 08.
- 32- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 373.
- 33- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبي ديب، دارالآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص 16 .
- 34- القزويني، زكريا محمد : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، دت، ص158.
- 35- إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، ج1، 1987، ص 51.
- 36- شحاتة صيام، الولي والمقدس الخروج من الناسوتية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص101.
- 37- ضياء الكعبي، السرد العربي القدام: الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص17.
- 38- نفسه، ص39.

- 39- نفسه، ص39.
- 40- نواف عبد العزيز الجحمة، صورة الآخر في رحلة ابن بطوطة، مجلة العربي، الكويت، العدد (552) نوفمبر 2004.
- 41- فايزة زيتوني، نصوص الكرامات في كتاب البستان لابن مريم، رسالة ماجستير، إشراف د. مشري بن خليفة، جامعة ورقلة قسم اللغة العربية وآدابها، 2008، ص 47.
- 42- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص 16.
- 43- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة - دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، 1997، ط3، ص36.
- 44- الحاج مصطفى العشعاشي، كتاب السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، تحقيق وتحرير مصطفى بن يلس شاوش بن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، دت، ص79.
- 45- نفسه، ص81.
- 46- نفسه، ص 31.
- 47- نفسه، ص56.
- 48- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مرجع سابق، ص10 .

مكتبة البحث:

1 . الكتب:

1. أنيس منصور، أعجب الرحلات في التاريخ، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ط13، ج 1، 1995.
2. إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط2، 2003.
3. إبراهيم الخطيب، نظرية المنهج الشكلي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1982.
4. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبي ديب، دار الآداب، ط2، 1998.
5. إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، ج1، 1987.
6. توماس كونت وآخرون، تصنيف الأنواع، القصة، الرواية، المؤلف (دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة)، ترجمة خيرى دومة، دار شرقيات، ط1، 1997.
7. جان ماري شيفير، ما الجنس الأدبي، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2006.
8. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1982.
9. الحاج مصطفى العشعاشي، كتاب السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، تحقيق وتحرير: مصطفى بن يلس شاوش بن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر، دت .
10. حسين فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

11. الخامسة علاوي، العجائية في أدب الرحلات، رسالة ماجستير إشراف أد عبد الله حمادي، قسم اللغة العربية، جامعة قسنطينة، 2005.
12. زكي مبارك، الشر الفني في القرن الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009.
13. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، -الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997.
14. سعيد يقطين، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997.
15. شحاتة صيام، الوليو المقدس الخروج من الناسوتية، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010.
16. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ط1.
17. شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009.
18. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 24، 2003.
19. ضياء الكعبي، السرد العربي القديم؛ الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.
20. عادل مصطفى، دلالة الشكل -دراسة في الاستطيقا الشكلية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
21. عبد الرحمن فراج، الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، العربية السعودية، 2010.
22. عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر -مستويات السرد-، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006.
23. عبد الرحيم مؤذن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، 1996. ص36.
24. عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1972.
25. عبد الفتاح كيليطو، المقامات، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، 1993.
26. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة -دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، 1997، ط3.
27. عبد القادر بن سالم: السرد وامتداد الحكاية (قراءة في نصوص جزائرية وعربية معاصرة)، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009.

28. عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2008.

29.فايزة زيتوني، نصوص الكرامات في كتاب البستان لابن مريم، رسالة ماجستير، إشراف د. مشري بن خليفة، جامعة ورقلة قسم اللغة العربية وآدابها، 2008.

30. القزويني، زكريا محمد : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، دت.

31. مازن الوعر، علم تحليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي، 15-16، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 14، السنة 2002.

2 . المجالات

32. مجلة جذور، العربية السعودية، ج14، مج 7، رجب 1424 - سبتمبر 2003.

33. مجلة العربي، الكويت، العدد (552) نوفمبر 2004.